

# الأحلام

بين التأويل الفلسفي والتعليل العلمي

للأستاذ عبد العزيز جادو

—•••••—

« إنما نحن كاللادة التي صنعت منها الأحلام » قولة فصد بها شكسبير دون شك ، المساعدة على إيضاح لغز الوجود . ولكن السر تحول فقط من « نحن » إلى « المادة التي تصنع منها الأحلام » . فما هي مادة الأحلام ؟

منذ بداية القرن الحالى ، أجاب كثيرون عن هذا السؤال كل بما يتقدمه صواباً . وأحدث نظرية تعرف أنها تتعلق بهذه المادة التي تصنع منها الأحلام ، هي التي قامت في الزمن الذي سجلته التوراة : كان الحلم نبوءة ؛ لذلك كان يحتاج إلى تمييز . ومن هذا الاعتقاد ، نشأت أنظمة للتمييز متفاوتة في الإجابة والإلتقان . فالتفسيرات أو التأويلات التي كان يستعملها سيدنا يوسف تبدو بسيطة نوعاً . فخرم القمح إذ نتحنى تعبها أن إخوته يقدمون له الولاء والطاعة . ورؤيته الأحد عشر كوكباً والشمس والقمر له ساجدين ، نبي بصورة ما ، عن عظمته المستقبلية « يوسف أيها الصديق أنتينا في سبع بقرات سمان يا كلهن سبع عجاف وسبع سنبلات خضر وأخر يابسات لعلى أرجع إلى الناس لملهم بملون . قال زرعون سبع سنين داباً فاحصدتم فذروه في سنبله إلا قليلاً مما تأكلون . ثم يأتي من بعد ذلك سبع شداد يا كلن ما قدمتم لمن إلا قليلاً مما تحصدون . ثم يأتي من بعد ذلك عام فيه يفتك الناس وفيه يمصرون » (\*)

إذن كان يوسف أكبر مفسر للحلم على أنه نبوءة من

(\*) جاء في سفر التكوين من التوراة « فقال يوسف لفرعون حلم فرعون واحد . قد أخبر الله فرعون بما هو صانع . البقرات السبع الحسنة هي سبع سنين . والسنايل السبع الحسنة هي سبع سنين . هو حلم واحد والبقرات السبع الرقيقة الفتيحة التي طلعت وراءها هي سبع سنين . والسنايل السبع الفارغة المنفوخة بالريح الشرقية تكون سبع سنين جوعاً هو الأمر الذي كلمت به فرعون . قد أظهر الله لفرعون ما هو صانع . هو ذا سبع سنين قادمة شيباً عظيماً في كل أرض مصر . ثم تقوم بعدها سبع سنين جوعاً . فينسى كل الشعب في أرض مصر ويتلف الجوع الأرض »

نبوءات المستقبل . ولكننا سمنا في الأربعين سنة الأخيرة عن شخص آخر — إسرائيل كيوسف — كثير الكلام عن التأويل والتفسير — هو سيجموند فرويد .

وخلافاً لما يرى رجل الأحلام القديم من أن في الحلم نبوءة لأرادة الله ، يرى فرويد أن في الحلم سجلاً للماضي ، وأن فيه دليلاً أو إشارة إلى رغبة الحالم أو إرادته .

وقد تجرمت عشرات القرون بين الرجلين ، وطال المسد بين الزمنين ، ولكن لا يزال فهمنا لمعظم الظواهر الطبيعية العامة كما هو لم يتقدم إلا يسيراً ، وما أظنه سيتقدم ولو تقدمت بنا الأزمان .

وإنه لحق أن كتب الأحلام ما زالت متداولة ، ولكن منزلتها لا تتجاوز منزلة قراءة البخت بواسطة « الكوتشينة » أو الفنجان ، أو قراءة الأخلاق بواسطة خطوط راحة اليد . فتفسير الأحلام قد انحط إلى درجة كبيرة .

وعندنا الآن نظريتان مشهورتان عن مسببات الأحلام : إحداهما عالجها هنري برجسون ؛ والأخرى وهي التي سلفت الإشارة إليها عالجها فرويد . وكان للنظرية الأخيرة أهمية واعتبار أكثر مما كان للأولى ، ويرجع هذا في الغالب ، إلى أنها تكون عنصراً هاماً في نظام علاج يعرف بالتحليل النفساني .

فبرجسون ، كفيلسوف ، يبالغ الأحلام على أنها أحلام وحسب . وفرويد ، كعالم ، يهتم بها على أنها علامات أو دلائل للحالات العاطفية ، والشئون الحيوية .

ومن رأينا أن كلتا النظريتين ضرورية ، يجب الأخذ بها لفهم أسباب جميع أحلامنا .

ولنأت هنا بمباراة مسببة لبرجسون ، فلم بلباب النظرية ، ونجمع أشدات الموضوع . يشرح فيها استمرار حواسنا أثناء النوم في استقبال التأثيرات والانفعالات ؛ فالعيون سريعة التأثر بدرجات الضوء ، والآذان تتأثر بالصوت ، والجسم في مجموعته يتعرض للتأثيرات أو الانفعالات الخارجية . أما داخلياً فالأعضاء المختلفة أيضاً تسبب إحساسات للتسجيل ، إحساسات مزججة ربما تكون من الأعضاء المضمية ، أو من القلب ، أو الرئتين :

التركيبات المسبوبة :

« وقصارى القول ، أن في النوم الطبيعي ، تكون حواسنا قطعاً قابلة لتأثيرات خارجية ... ويبسند على إحساس حقيق أننا

بأن القوى العقلية ذاتها قد تمت ممارستها ، سواء صكنا في حالة اليقظة ، أو في حالة الحلم ؛ ولكنها تتوفر في الحالة الأولى ، ونسترخي في الثانية . والحلم هو الحياة العقلية الصحيحة ، ناقصة جهد التركيز .

هنا نرى أن نظرية برجسون المخصصة في هذه السمكيات ، بسيطة غاية البساطة . عنصران يشتغلان لتفريق حلم : إحساس ، ووضع صورة منسوج حولها بواسطة الذاكرة ، ضوء يومض من نافذتي بينا أكون نائماً ؛ فتنسج ذاكرتي حول هذا الإحساس بالضوء ، قصة مقبولة ومقبولة . هذه القصة أو هذا التعليل هو حل على كثير من الأحلام المألوفة لدى معظمنا يمكن أن تفسر على ضوء هذه النظرية . قد نحلم بأننا مسافرون بقارب في البحر ، وتحدث بعض طواري صغيرة لها صلة بالمفارقة ، ولكن المنصر السائد هو برودة الهواء . فنحن شاعرون ببرودة كما لو كنا مسافرين بالبحر . ونستيقظ فنجد أن غطاءنا متزاق عن السرير ، الأمر الذي نالنا منه برد شديد .

أو أننا قد نرى حلماً من تلك الأحلام التي نعيش فيها كما لو كنا في نعيم ؛ كأن نكون مثلاً محققين بلطف وبشكل توقيمي في أجواء الفضاء الفسيح . وإنه ليسيط كما أنه متعم ، فإذا علينا لو قلنا لأصدقائنا كيف يسهلون مثلنا ؟ ولكن للأسف ، لقد فقدنا اللعبة حالما استيقظنا من النوم . والتفسير الصائب المقبول حسب نظرية برجسون ليس إلا نسمة في الغرفة قريبة منا تداعب الفراش أو قيص نومنا ذاته . ولكن أرجلنا لم تستند على الأرض ، فنشعر في غير وضوح بهذه الحقيقة . ولا يمكن أن نكون سائرين فتفعل ذاكرتنا الباقي ، إذ تؤلف القصة ، ونرى أنفسنا طائرين . والاعتقاد بأن ماناً كله يؤثر في الغالب في أحلامنا ولا سيما في جعلها غير سارة ، يتصل تقريباً بهذه النظرية . والإحساس في هذه الحالات هو المضايقة التي يسببها عسر هضم ينشأ من أكلة ثقيلة .

ولنرجع الآن إلى الرجل الذي قلب نظام الانبجاء نحو الأحلام ؛ ليس هذا مجال الإشارة إليه إلا فيما يتعلق بما مضى ، والتأثير الهائل الذي له على الفكرة اليوم ؛ العبارات والتعبيرات التي أبدعها موجودة تقريباً في كل ما يتصل بأداب العصر الحاضر ؛ والمواد التي كتبت مرة لتبرهن على أنه كان ذا تأثير في الأدب غير مرهوب فيه ، سهنته الملاجية استعملت لكي تكون ضد اختيار طرائفه في التدريب . ولكن تأثيره لا يزال مستمراً سواء كان

نصنع حلماً أو نلفقه ؟ إذن كيف نلفقه ؟ ..

« إن ذكرياتنا ، في لحظة معينة ، تصوغ شكلاً هرمياً جماً تطابق قوته حاضرتنا ... ولكن ، من وراء الذكريات التي نحشد في شغلنا الحاضر ، وتظهر بوساطتها ، يوجد أخرى غيرها آلاف وآلاف غيرها ، تحت المنظر الذي قام الشمور بتدبيره ووراءه ... وإنها لتتوق أحياناً إلى الضوء : ومع ذلك فإنها لا تحاول أن تنهض إليه ؛ لأنها تعرف أن هذا مستحيل ، وإنني أنا ، مخلوق حي ومتصرف ، عندي نعمة شيء آخر أقوم بهمه غير إشغال نفسي بها .

« غلبني النعاس ، إذن تلك الذكريات المكبوتة ، التي تشر بأني تركت العائق جانباً ، ترفع المزلاج عن الباب السري الذي يبعد بينها وبين حقل الشمور ، وتبدأ في التحرك والثورات ، ومن ثم تنهض وتنتشر إلى الخارج — أتؤدي في ليل اللاشمور رقصة لطيفة حمجية . وتندفع إلى الباب الذي لا يزال ( موارباً ) وتتراحم جميعها لاجتيازه . ولكنها لا تقدر ؛ فهسناك كثير ، كثير جداً . من هذه كلها ، على أيها يقع الاختيار ؟ ..

« سهل علينا الحدس والتخمين . الآن فقط ، عندما نستيقظ كانت الذكريات المحتملة هي التي استطاعت أن تطال بوصول موقفي الحاضر بإحساساً التي المطابقة للواقع ... وهكذا إذن من بين الذكريات الطيفية ، ذكريات تتوق إلى وزن نفسها مع اللون ، والصوت . وبالاختصار مع المادية ، تلك الذكريات التي تمسها هي التي يمكنها أن تتماثل لون التراب الذي أحسه وأراه ، والضوضاء الخارجية أو الداخلية التي أسمها ، وغيرها ... فعندما يحدث هذا الاتحاد بين الذاكرة والإحساس ، فبأنني أحلم .

« الإحساس عنيف حار ، ملوّن ، فيهذب ، وهو في الغالب حي ، ولكنه غامض ؛ والذاكرة واضحة وصافية ، ولكنها بدون مادة ولا حياة لها .

الإحساس يتوق إلى قالب يجمد فيه ميوعته ؛ والذاكرة تتوق إلى مادة تملأها وتدكها — وبالاختصار لتتوعمها . فهما منجذبان كلٌّ إلى الآخر ؛ والذاكرة الطيفية ، يجملها نفسها مادية في الإحساس الذي يمددها باللحم والدم ، لتصبح مخلوقاً يعيش في حياة من حيواناتها ، حلم ...

« ميلاد الحلم إذن ليس سراً ... فما الفرق الجوهرى بين الكينونة في حلم والكينونة في يقظة ؟ نجمل الكلام في ذلك

للخير أو للشر .

كثيراً ما نظن عن الحلم أنه مشوش ومقلق انومنا ، ولكنه بالنسبة لنظرية فرويد يُعد بمثابة حارس . فالحلم يبق النائم من الاستيقاظ ، سواء بواسطة منبهات خارجية لحواسه ، أو بواسطة منبهات داخلية تهيبها انفعالات ، أو أفكار غير سارة . ومثل الحلم كمثل أم تقول لطفلها الذي تعرف أن أصواتاً أو مشاهد غير عادية تخيفه « لا تخف ، إنه لم يكن إلا الهواء يداعب الأغصان » كل حلم يعبر عن رغبة :

لكن تفهم هذه النظرية على حقيقتها يلزمنا أن نضع نصب أعيننا بضع قواعد ثابتة : كل حلم يعبر عن رغبة ، والحلم الرمزي هو إشباع مستتر لرغبة مكبوتة . وفي الأحلام تنال ما تصبو إليه نفوسنا أخيراً ، ولكن - « ليس هناك حلم واحد لا يمكن أن يظهر بواسطة التحليل ليعتدى على بعض قوانين أخلاقية أو شرعية » وإن التثبت والإصرار على هذين المبدأين هو الذي يسبب - في الغالب - ذلك السخط على فرويد . ولا ترى في الحقيقة سبباً للأزعاج أو الشك في هذه البيانات .

ومن الممتع أن أى شخص متأمل ، أمين في تأمله ، سيترف بأنه غالباً ما يتمنى امتلاك ما ليس في حوزته ، ويرغب في حوادث وعواطف يعرف أنها مطابقة لسبل حياة الزمن الحاضر ولا يمكنه امتلاكها . وما نسميه رغبانا الشرعية أو القانونية لا نكتفينا بل نعبر عنها ونصرح بها ، ونحاول أن نحصل عليها أو على الأقل نسمح لها بيمض الاشتراك في حيواننا . وإن مجرد الرغبات في الأشياء المنوعة هي التي نخرجها من عقولنا ، ظناً منا أننا بملنا هذا قد محوناها وحطمناها . ولكن هذا يبدو صريحا ومبهماً . وإنما لتبدو أقوى بنوع ما مع القوى الخبيثة المكتوبة . وستجد طريقها إن لم يكن في حياة بقطتنا إذن في نومنا .

نحتاج فضلاً عن ذلك إلى أن نفهم أن هناك محتويين لكل حلم ، كما كانت آراء المفسرين مثل يوسف . فهناك المحتوى الحرفي أو الظاهر ، إذ نحلم بمحسان شرس . والمحتوى المجازي أو البكامن في مثل هذا الحلم ، هو التمييز عن رغبة جنسية غير قائمة طبقاً لتفسير فرويد .

والمعنى البكامن كثيراً ما يبدو للحالم محرراً ، أو متنسكراً لكي يستطيع المرور من « الرقيب » الذي يدل عليه اسمه ،

والذي يحاول في النوم دائماً أن يُخفي العناصر غير المناسبة عن عقولنا . هنا بأخذ فرويد على نفسه مسئولية ما ذكرناه آنفاً بأن جميع رغبانا المكبوتة مخجلة وفاضحة لنا كتمدينين ، فهي في النوم لا يمكن أن تظهر بدون تحريف . فيلزمنا إذن أن نتفح نأويل بسيط :

هنا الكثير مما يشتمر منه الشخص المحافظ على التقاليد ، ويحجم عن قبوله ، ولكن حينما يبدأ التأويل يكون هناك الرقص الدنيب ، أو الإستخفاف ، أو السخرية من قبل الكثير ، لماذا تكون الحية والشمسية وسيقان الورد المستقيمة وغيرها من الأشياء البريئة لماذا تكون في الأحلام رموزاً للأعضاء المستترة من جسم الإنسان ؟ ولماذا يتكون الحلم الذي فيه خيل ، على وجه التخصيص ، وأحياناً أنواع أخرى من الحيوان ، أو الحلم بصمود سلالم ، أو السير فوق بحر من تحت ثغرة واسعة ، لماذا تكون هذه الأحلام « المقلقة » رموزاً لرغبة جنسية لم تشبع ؟ يجب أن يفهم تماماً أن هذه الرموز لم يخترعها فرويد ، ولم يذكرها بطريقة اعتباطية ، ولكنها اكتشفت فقط . ومنمبها في لا شعور الفرد أو الثرية . واقد حال فرويد وأتباعه آلافاً وآلافاً من الأحلام .

وفما يلي تقتبس عبارة لبريل Brill أتى فيها بحلم وتعليقه ، أو بالأحرى ، بمعنييه الظاهر والباطن .

« حلت إحدى مريضاتي أنها رأت ولدها الأكبر مكفناً في تابوت ، وكانت مع ذلك غير مكترثة به قط . ولما قيل لها إن الحلم يقوم مقام إشباع الرغبة أصرت على أن هذه النظرية خاطئة ، إذ أنها لا تضم أى رغبة كهذه بخصوص ابنها . ومع ذلك فقد أظهر التحليل النفساني الحقائق التالية :

مات زوجها تاركاً لها طفلين ؛ ثم تزوجت من أرمل له هو أيضاً طفلان . وكان الزوجان سميدين ، ولكن نظراً لأن لها أربعة أطفال فإنها لا يستطيعان القيام بتربية من يأتي بهمدم . وكثيراً ما أعربت الزوجة عن رغبتها الأكيدة في الحمل من زوجها الثاني لكي تقوى الرابطة بينهما ، ولكن وجود أربعة أطفال في الأسرة يعوق هذه الرغبة . فالحلم يشبع رغبنا بأن يربها أن في الأسرة ثلاثة أطفال وحسب »

عبد العزيز جادو